

## ملخص

بعد أن انهيار سلطان المرابطين في الأندلس ظهرت في البلاد قيادات محلية، سرعان ما اختفت بعد دخول الموحدين لبلاد الأندلس، إلا أن منطقة شرقي الأندلس عرفت بعد المرابطين مرحلة تاريخية مهمة، حيث آلت إمارتها إلى ابن مردنيش، هذا الأخير الذي اختلف المؤرخون في أصله وتضاربت الآراء في كيفية توليه الإمارة، هذه الإمارة التي أثبتت سلطانه بها خلال وقت قصير، حيث اعترفت به الممالك النصرانية والإمارات الإسلامية، ومنها من تحالفت معه ولو لبعض الوقت كإمارة ابن همشك، الأمر الذي دفعه إلى الامتناع عن الدخول تحت طاعة الموحدين.

## مقدمة

بعد انهيار سلطان المرابطين بالأندلس، وظهور قيادات محلية أوقعت البلاد في فوضى عارمة، استدعت تواجد الموحدين في المنطقة للسيطرة على البلاد وإعادة تنظيمها، وهذا ما حدث فعلاً في غربي الأندلس وجنوبها ووسطها، لكن لشرقي الأندلس محطة تاريخية بعد عصر المرابطين، وقيل دخول الموحدين إليها تلزمتا بدراستها نظراً لما تحتوي عليه من أحداث جديرة بالدراسة والتحليل. هذه المحطة التاريخية في الفترة الممتدة من نهاية حكم المرابطين في شرقي الأندلس إلى غاية بداية حكم الموحدين بالمنطقة، وهي الفترة التي أسس فيها ابن مردنيش إمارته بشرقي الأندلس، مما دفعنا إلى محاولة الوقوف على مدى أهمية وتأثير هذه الفترة على شرقي الأندلس والممالك المجاورة، وانطلاقاً من هذا نجد أنفسنا ملزمين بالإجابة على التساؤلات التالية: من هو ابن مردنيش؟ وما هو نسبه وأصله؟ وما هي الظروف والعوامل التي أدت إلى توليه إمارة شرقي الأندلس؟

وللإجابة على هذه التساؤلات انتهجنا خطة عمل تضمنت التعريف بأصل ابن مردنيش وظروف توليه الإمارة كمبحث أول، ومبحث ثاني خاص بعلاقاته الخارجية مع الممالك والإمارات المجاورة النصرانية منها والإسلامية.

وقد اعتمدنا في دراستنا على مجموعة متواضعة من المصادر والمراجع منها: ( كتاب "تاريخ إسبانيا الإسلامية" أو كتاب "أعمال الأعلام فيمن بوع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام"، وهو كتاب جاء مختصراً وشاملاً لتاريخ إسبانيا الإسلامية والمسيحية لصاحبه ابن الخطيب لسان الدين، وكتاب "الحلة السيرة" لصاحبه ابن الأبار محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي المتوفي سنة (٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م)، حققه حسين مؤنس، ويتناول الكتاب طائفة من تراجم رجال الثقافة في المغرب والأندلس من القرن الأول الهجري حتى أوائل القرن السابع، كما يتعرض الكتاب للكثير من الأحداث التاريخية خاصة فيما يتعلق بالصراع بين الموحدين وابن مردنيش، إضافة إلى كتاب "العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر" لصاحبه أبو زيد عبد الرحمن المعروف بابن خلدون المتوفي (سنة ٨٠٨هـ/١٤٠٦م)،



## شرقي الأندلس بعد المرابطين

(٥١٨ - ٥٤٥ هـ / ١١٣٤ - ١١٥١ م)

## مغنية غرداين

أستاذة مساعدة تاريخ المغرب الإسلامي الوسيط  
جامعة أبي بكر بلقايد - تلمسان  
الجمهورية الجزائرية



## الاستشهاد المرجعي بالمقال:

مغنية غرداين، شرقي الأندلس بعد المرابطين (٥١٨ - ٥٤٥ هـ / ١١٣٤ - ١١٥١ م).- دورية كان التاريخية- العدد العشرون؛ يونيو ٢٠١٣. ص ٧٠ - ٧٥.

www.kanhistorique.org

ISSN: 2090 - 0449

كان التاريخية: رقمية المواطن .. عربية الهوية .. عالمية الأصد

علاقة بالأصول البيزنطية، حيث يرسم في أصله البيزنطي "Mardinius" ويتفق هذا مع انتسابه جغرافياً لمنطقة قريبة من قرطاجنة<sup>(٨)</sup> البيزنطية.

كما أن ديار جذامة بن عدي بن الحارث بن مرة في الأندلس كانت ضمن شذونة<sup>(٩)</sup> وتدمير<sup>(١٠)</sup> وأشبيلية وقرطاجنة بصفة عامة مناطق<sup>(١١)</sup> الثغر الأعلى<sup>(١٢)</sup>، وهي المنطقة التي ولد فيها "محمد بن سعد بن مردنيش"، وقد كانت صفاته وسلوكاته تمثل السلوكات الإسبانية، حيث كان يتشبه بالنصارى في الزي والسلاح واللجام والسروج، إضافة إلى ذلك أنه كان يجيد اللغة القشتالية ويفضل التحدث بها.<sup>(١٣)</sup>

هذا وقد عرف ابن مردنيش في المصادر الإسبانية باسم "الملك لوبو" "Rey Lobo"، أو "لب" "Lope" ومعناه الذئب،<sup>(١٤)</sup> وكان والده سعد والياً على إفراغة<sup>(١٥)</sup> أيام المرابطين وقد أبدى كفاءة عالية وشجاعة فائقة أثناء محاصرة النصارى لهذه المدينة في أواخر سنة (٥٢٧هـ/١١٣٣م) مما اضطرهم إلى رفع الحصار، ثم عاودوه وبقي النصارى على هذه الحال إلى أن وفدت الإمدادات المرابطية بقيادة يحيى بن غانية، حيث هاجم هذا الأخير جيش النصارى من الأمام، ثم خرج سعد بن مردنيش من المدينة وهاجم النصارى من الخلف مما أدى إلى قتل عدد كبير من أفراد جيش النصارى، ولم ينج إلا بعض القادة والفرسان من أصل ١٢ ألف مقاتل معظمهم من الأشراف والنبلاء ورجال الدين.<sup>(١٦)</sup>

ولما أظهر سعد بن مردنيش هذه الشجاعة والبسالة كافأه المرابطون فقدموه في جيوشهم وأحسنوا إليه، وقدم معه ابنه "محمد" مما ساعده على إتقان القيادة والرئاسة في زمانه بفضل ما تعلمه من أبيه حين كان مرافقاً له في جيوش المرابطين.<sup>(١٧)</sup>

وأما عمه "عبد الله بن مردنيش" صهر القاضي ابن عياض<sup>(١٨)</sup> ونائبه في بلنسية وساعده الأيمن في تأسيس إمارة الشرق،<sup>(١٩)</sup> وبالتالي يتضح أن محمد بن سعد بن مردنيش قد تربى في أسرة ذات إمارة ورئاسة ولها رجال معروفون بالشهامة والفروسية؛ ويذكر ابن الخطيب بعض صفات ابن مردنيش فيقول: "ساد من صغره بشجاعته ونجابته وصيت أبيه، فمال بذلك إلى القيادة وسنه إحدى وعشرون سنة، فارتفع إلى الملك الراسخ والسلطان الشامخ بفضل شجاعته وشهامته، فسموا قدره وعظم أمره وفشا (فشي) في كل أمة ذكره..."<sup>(٢٠)</sup>

كما أن ابن مردنيش كان يهابه الجميع من قريب أو من بعيد، إلا أنه كان كريماً سخياً، حيث كان له في كل أسبوع يومان يجلس فيهما مع ندمائه يسامرهم ويوجد على قادته وخاصته وجنده، فيذبح البقرة في المواسم ويفرق لحومها على الجنود فملك بذلك قلوبهم وعاملوه بغاية الطاعة، كما أنه كان يهب الأموال في مجالسه، ويذكر أنه ذات يوم وهو جالس مع ندمائه وأصحابه في مجلس مترف بأواني فضية وزهبية وأرائك ولما كان آخر اليوم وهمهم كل ما كان في ذلك المجلس.<sup>(٢١)</sup>

ولد ونشأ في تونس، تولى الكتابة بين الملوك في الأندلس والمغرب، ثم ارتحل إلى مصر، ويتكون كتابه هذا من سبعة مجلدات، المجلد الأول والمعروف بـ "المقدمة"، ويشير فيه إلى الموحدين خاصة في التعريف بأبي العباس الصقلي قائد الأسطول الموحد، وأما الجزء السادس فإنه يحتوي على جزء كبير من تاريخ الموحدين مما جعلني أعتمد عليه بشكل كبير، وكتاب "الروض المعطار في خبر الأقطار" لصاحبه أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم الحميري المتوفي سنة (٨٦٦هـ/١٤٦١م)، من تحقيق إحسان عباس، فرغم أن الكتاب يصنف ضمن المعاجم الجغرافية لمدينة الأندلس، إلا أن هذا لا يمنع من أنه يحتوي على معلومات تاريخية هامة عن المدن الأندلسية، وكتاب "المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوراثة" لمؤلفه عبد الملك بن محمد بن صاحب الصلاة الباجي، المتوفي في أواخر المائة السادسة للهجرة، وقد حققه الهادي التازي، ويستمد أهميته من كون مؤلفه معاصراً للأحداث الموحدية، فهو مفيد لتتبع أحداث الصراع خاصة في الأندلس، كما ينقل لنا الكتاب بعض الرسائل بين مسلمي الأندلس والخلفاء الموحدين، وبعض القصائد التي ألقت في شأن الموحدين، هذا وقد عاش المؤلف بعض الأحداث المهمة في الدولة الموحدية في الأندلس، إضافة إلى بعض المراجع باللغتين العربية والأجنبية.

ومن بين الصعوبات التي واجهتنا أثناء البحث في هذا الموضوع هو تضارب آراء المؤرخين والمصادر في التواريخ والأحداث، لكن رغم ذلك حاولنا قد المستطاع ترجيح الرأي المنطقي حسب المصادر وتفسير الأحداث بشكل عقلائي وموضوعي، وذلك باعتمادنا على المنهج التاريخي العلمي القائم على جمع المادة التاريخية المتوفرة حول الموضوع، وسرد الأحداث وذكر المعلومات، وتحليلها بشكل عقلائي منطقي.

## أولاً: أصل ابن مردنيش وتوليه الإمارة

هو أبو عبد الله محمد بن سعيد بن محمد بن سعد الجذامي بن مردنيش، وذلك باتفاق عدد كبير من المؤرخين والنسابة المتقدمين،<sup>(١)</sup> ويذكر لسان الدين بن الخطيب أنه محمد بن سعد بن محمد بن أحمد بن مردنيش الجذامي التجي،<sup>(٢)</sup> والأرجح ما أورده النسابة المتقدمين واتفقوا عليه، وقد ولد (سنة ٥١٨هـ/ ١١٢٤م) في قلعة بنشكلة وهي إحدى قلاع طرطوشة،<sup>(٣)</sup> وتنسب الروايات العربية أن ابن مردنيش ينتمي إلى قبيلة جذامة<sup>(٤)</sup> العربية؛ إلا أن بعض الباحثين يجعلون أصله إسباني وأن جده دخل في ولاء الجذاميين فانسب إليهم،<sup>(٥)</sup> كما يؤكد الباحثين على صحة ما أورده بخصوص نسب ابن مردنيش أن اسم "مردنيش"، أو "مردانيش"، أو "مردنيش" ليس اسماً عربياً مما ينفي صلته بقبيلة جذامة ويوضح أن أصله من شبه جزيرة إيبيريا.<sup>(٦)</sup>

كما يرى البعض أن اسم "مردنيش" اسم إسباني وقد حرف عند تعريبه فهو كان ينطق بالإسبانية "مارثنيث" "Martinez" أو "مارثينيثي" "Martinizi" وتعني "ابن مارتين" وقد يكون للاسم

الإمارة لكنها معظمها تربط بين وفاة ابن عياض وتولية ابن مردنيش الإمارة، فتذكر بعض المصادر أنه أعلن للناس أن ابن عياض لما حضرته الوفاة عهد له بتولية الإمارة من بعده فبايعه الناس على الإمارة،<sup>(٣٧)</sup> وتذكر بعض مصادر أخرى أن ابن عياض لما حضرته الوفاة أشار إلى من اجتمع إليه من الأعيان والجند بتولية ابن مردنيش الإمارة من بعده. وهناك من أشار إليه بأن يعهد بها لابنه لكنه أبى وقيل أنه امتنع عن ذلك لما كان عليه ابنه من شرب الخمر وإغفال عن الصلاة،<sup>(٣٨)</sup> وقيل أن أهل بلنسية بايعوا ابن مردنيش ونصبوه أميراً عليهم دون عهد سابق له من ابن عياض.<sup>(٣٩)</sup>

ومن ثم فإنه يمكن القول؛ أنه إذا أخذنا بالرأي الأول الذي يقول بأن ابن عياض عهد بالإمارة إلى ابن مردنيش، فيتضح أن هذا الرأي يوافق الرأي الذي يقول أن ابن عياض توفي بعد مرض جراء السهم الذي أصابه في حربه ضد النصارى، وأما إذا أخذنا بالرأي الثاني الذي يقول بأن أهل بلنسية بايعوا ابن مردنيش دون عهد سابق، فإن هذا الرأي يوافق الرأي القائل بأن ابن عياض قُتل في معركته مع "بنو جميل"، والأرجح الرأيين الأولين نظراً لأهمهما وردا في معظم المصادر القريبة من تلك الفترة مثل عبد الواحد المراكشي.

أما عن مرسية، فقد اختار أهلها للإمارة عليهم وتولي شؤونهم نائب ابن عياض "أبا الحسن علي بن عبيد"، لكنه لم يحتفظ بها سوى فترة قصيرة، ففي أواخر جمادى الأولى ٥٤٢هـ / ١١٤٧م تخلى عنها لابن مردنيش،<sup>(٤٠)</sup> وأصبح أميراً على كامل منطقة شرقي الأندلس، وكان ذلك في شهر جمادى الأولى سنة ٥٤٢هـ / ١١٤٧م،<sup>(٤١)</sup>

حيث أصبح يتربع على مساحة واسعة من بلاد الأندلس تمتد من أسوار ألمرية شمالاً إلى حدود غرناطة جنوباً، ومن الساحل المطل على البحر المتوسط غرباً إلى قرطبة شرقاً.<sup>(٤٢)</sup>

هذا وكانت لابن مردنيش علاقات متينة مع الإمارات والممالك النصرانية بما فيها الإسبانية، حيث كان يدفع الإتاوات لكافة الممالك، مما أجبره على فرض غرامات ورسوم مختلفة وقاسية نوعاً ما على رعاياه المسلمين،<sup>(٤٣)</sup> وكانت تربطه أيضاً علاقات مع الإمارات والممالك الإسلامية مما يدل على أنه كان مهتماً بالعلاقات الخارجية فترة توليه الإمارة.

### ثانياً: علاقات ابن مردنيش الخارجية

عزم ابن مردنيش في بداية الأمر على الاستقلال بإمارته، إلا أنه كان شديد الحرص على ربط علاقات خارجية متينة مع الإمارات والممالك المجاورة لإمارته الإسلامية منها علاقته بـ ابن همشك،<sup>(٤٤)</sup> الذي كان يعتبره ابن مردنيش نداءً له في المنطقة، وقد حاول ابن مردنيش استمالته وضمه إلى جانبه، حيث عقد معه صلة مصاهرة<sup>(٤٥)</sup> وقربه منه وجعله قائداً لجيوشه، حتى وصف أنه سيف ابن مردنيش يسلطه على كل من عصاه ويقود له الجيوش ويفتح البلاد<sup>(٤٦)</sup> باسمه مما جعل ابن مردنيش يوليه مدينة مرسية.<sup>(٤٧)</sup> وقد اتحد ابن مردنيش مع ابن همشك في عدة أمور منها أنهما اتحدا على محاربة الموحدون، كما اتحدا على بناء علاقات تعاون حميمة مع

لكن الكثير من الناس نعموا عليه نظراً لحبه الكبير للخمر والرقص واللهو؛ والتشبه بالنصارى في اللباس والسلاح والسروج، وشغفه بالثقافة الإسبانية والتكلم باللغة القشتالية وإتقانها، ولجونه للنصارى واحتمائه بهم، إذ كان يدعو إلى جيشه الكثير من المرتزقة من "البشكنس"،<sup>(٢٦)</sup> و"القطلان"،<sup>(٢٣)</sup> و"القشتال"،<sup>(٢٤)</sup> فبيني لهم الأحياء والمعسكرات والحانات ويقطع لهم الأراضي، حيث يذكر أنه اقتطع لأحد فرسان البشكنس الذي كان يُدعى "بيدرودي أتاچرا" مدينة شنتمرية،<sup>(٢٥)</sup> مع سائر مرافقها وأراضها فأنشأ فيها الفارس "بيدرو" أسقفية،<sup>(٢٦)</sup> ولم يضايق هذا ابن مردنيش بل كانت له علاقات حميمة مع رجال الدين النصارى حيث منحه البابا إيوجين الثالث لقب الملك صاحب الذكر الحميد.<sup>(٢٧)</sup>

كل هذه الصفات التي اتصف بها "ابن مردنيش" الحميدة منها والدينية ساعدته على أن يكون صاحب إمارة شرقي الأندلس، التي وصلت إليه عن طريق ما تخض من أحداث في منطقة شرقي الأندلس، حيث تولى ابن عياض قائد جند الثغر أمر المنطقة بعد أن ناشده لذلك أهل مرسية وطلبوا منه تولي الإمارة، فلبى طلبهم وسار إليهم فتلقاه والي أربولة<sup>(٢٨)</sup> وسلمه إياها ثم واصل ابن عياض طريقه إلى مرسية فدخلها واجتمع حوله أهلها ولم يكن لصاحبها "ابن طاهر"<sup>(٢٩)</sup> سوء ظن بابن عياض الذي ما إن دخل القصر حتى انتزع من "ابن طاهر" سلطانه وعفا عنه، ويقال توقيراً له وإشفاقاً لضعفه، وكان ذلك بتاريخ ١٠ جمادى الأولى سنة (٥٤٠هـ / ١١٤٥م).<sup>(٣٠)</sup>

كما تم استدعاء ابن عياض من طرف جند بلنسية من أجل تولي أمورهم بعد أن خلعوا أميرهم "مروان بن عبد العزيز" وولوا أمورهم لـ "عبد الله بن محمد بن مردنيش" -عم محمد بن سعد بن مردنيش- إلى حين وصول ابن عياض، هذا الأخير الذي بويع بالإمارة أواخر شهر جمادى الأولى سنة (٥٤٠هـ / ١١٤٥م) فأقام فيها ونظم شؤونها، ثم غادرها بعد أن دعا لابن هود.<sup>(٣١)</sup>

وانطلاقاً من الأحداث التي ذُكرت سابقاً، وبناءً على ما اتصف به ابن عياض كما ورد في بعض المصادر والمراجع أنه كان جندياً عظيمًا، رجلاً صالحًا ورعًا وافر الحزم يقدرون النصارى فروسيته ويتجنبون لقاءه، فإنه استطاع أن يستمر في حكم بلاد شرقي الأندلس بلا منازع مدة سنة وتسعة أشهر وعشرين يومًا إلى أن انقطعت صلته بالحياة في يوم ٢٢ ربيع الأول ٥٤٢هـ / ٢١ أوت ١١٤٧م.<sup>(٣٢)</sup>

وقد اختلفت المصادر حول وفاته حيث يذكر ابن الأبار أنه توفي بعد مرض جراء إصابته بسهم في إحدى حروبه ضد القشتاليين.<sup>(٣٣)</sup> وتذكر مصادر أخرى أنه قُتل خلال معركة نشبت بينه وبين قوم يدعون باسم "بنو جميل" على مقربة من بلش،<sup>(٣٤)</sup> وحمل جثمانه إلى بلنسية ودفن بها، وقام على مواراته صهره،<sup>(٣٥)</sup> ونائبه على بلنسية محمد بن سعد بن مردنيش<sup>(٣٦)</sup> الذي تولى الإمارة بعده في شرق الأندلس، وتختلف المصادر التاريخية في كيفية أو سبل توليه

القطالبيين والإيطاليين وبعض الحشود من وراء جبال البرانس منهم الفرنسيين،<sup>(٥٦)</sup> وكانت ألمرية تابعة لابن مردنيش قبل أن يغزوها النصارى وأقام عليها أحد أقاربه اسمه محمد بن سعد.<sup>(٥٧)</sup>

ويصف أحد المؤرخين المعاصرين هذه الحملة فيقول: "ملاً النصارى السهل بجيوشهم الضخمة وخبروا الحقول واستاقوا الماشية وساروا نحو ألمرية... ويتألف جيشهم من صفوف لا تحصى من الفرسان والمشاة فامتألت بهم الجبال والسهول... ورأى المسلمون أن لا أمل لهم في النجدة فخرجوا مرارًا لمقاتلة النصارى وفقدوا خيرة فرسانهم... ثم بدؤوا المفاوضات وسلموا المدينة للأذنفش بعد حصار دام ثلاثة أشهر... وكان ذلك في أواخر سنة (٥٤٢هـ/١١٤٧م)."<sup>(٥٨)</sup>

وانطلاقاً من هذا الوصف لهذه الحملة يفهم أن النصارى قد سبوا وغنموا ونهبوا وقتلوا وأسروا، ومن بين الذين قتلوا العالم الجليل "الحافظ أبو محمد عبد الله الرشاط ألمري"،<sup>(٥٩)</sup> وابن مردنيش لم يحرك ساكناً نظراً لالتزامه بما عقده من معاهدات واتفاقيات، رغم أنه كان لم يعقد بعد المعاهدتين سابقتي الذكر- معاهدته مع ملك قشتالة ومعاهدته مع ملك أراغون- ذلك لأنهما عقدتا على إثر انعقاد معاهدة تطيلة بين ملك قشتالة وملك أراغون ومعاهدة تطيلة كانت سنة (٥٤٥هـ/١١٥١م)، بينما سقوط ألمرية كان حسب ما جاء في وصف الحملة سنة (٥٤٢هـ/١١٤٧م) أي في السنة الأولى من تولي ابن مردنيش الحكم في شرقي الأندلس.

هذا ولم يكتف النصارى بغزو ألمرية فقط، بل وجهوا أنظارهم إلى مدينة طرطوشة، حيث دعا البابا أوجين الثالث إلى حملة صليبية لغزو المدينة؛ وكان على رأس الحملة أمير برشلونة<sup>(٦٠)</sup> في مملكة أراغون الكونت "رامون برنجير" وحاصروها مدة ٤٠ يوماً، وقد دافع المسلمون عنها بكل شجاعة أملين في أن تردهم نجدة من بلنسية، لكنهم يتسوا فسلموا المدينة صلحاً بتاريخ ١٦ شعبان ٥٤٣هـ/١١٤٨م.<sup>(٦١)</sup>

وهذه المدينة كانت خاضعة أيضاً لابن مردنيش، لكنه لم يتحرك لإنقاذها؛ فقد كانت معاهداته مع ألفونسو السابع والكونت رامون برنجير تحول دون ذلك كما أن معاهداته مع الجمهوريات الإيطالية تنص على أن لا يلحق أي ضرر برعاياه من طرف الجمهوريات الإيطالية؛ إلا أنها ساهمت في الحملة ضد ألمرية وضد عدة مدن أخرى.<sup>(٦٢)</sup>

هذا عن علاقاته بالممالك والإمارات النصرانية وانعكاساتها، وأما عن علاقاته بالإمارات الإسلامية خارج الأندلس؛ فنجد معظم المصادر والمراجع التاريخية تولي أهمية كبرى في هذا الصدد علاقته بالدولة الموحدية، فقد كانت دائماً علاقة متوترة ومتأزمة، فقد كان ابن مردنيش حركة من الحركات المناوئة للحكم الموحد في بلاد الأندلس، وقد كان ابن مردنيش معارضاً للحكم الموحد، لأنه كان يسعى لتوسيع نفوذه في كافة أقطار بلاد الأندلس، وكان تواجد الموحدون في الأندلس يحول بينه وبين تحقيق هدفه، وفي نفس

النصارى، وبالتالي فإن علاقات ابن مردنيش مع الممالك والإمارات النصرانية تعددت إلى خارج الجزيرة.

فقد عقد ابن مردنيش سنة (٥٤٣هـ/١١٤٨م) معاهدة صلح مع بعض الجمهوريات الإيطالية مدتها عشر سنوات تعهد بموجبها على أن يدفع إتاوة قدرها ١٠ آلاف دينار مرابطية كل عامين، وأن يبني للرعايا الإيطاليين في بلنسية فندقاً يزاولون فيه تجارتهم في حين تعهدت الجمهوريات الإيطالية من جهتها بأن لا تلحق أضراراً برعايا ابن مردنيش أو الملك لوبو كما كان يسميه النصارى،<sup>(٤٨)</sup> كما كان ابن مردنيش يرسل كثيراً من ملوك النصارى ويبعث إليهم بالهدايا القيمة تتمثل في الذهب والحريير والخيل والجمال. هذا وقد عقد ابن مردنيش معاهدتين مع مملكتي قشتالة وأراغون<sup>(٤٩)</sup> (Aragon) بعد أن أدرك ما اتفقا عليه ملكا هاتين المملكتين بموجب معاهدة سميت بمعاهدة تطيلة<sup>(٥٠)</sup> سنة (٥٤٥هـ/١١٥١م)، وقد نصت هذه المعاهدة على تقسيم بلاد الأندلس بين الملكين حيث تمثل نصيب الملك أراغون في شرقي الأندلس مع توليه حكم كل من مرسية وبلنسية بشكل تابع لملك قشتالة،<sup>(٥١)</sup> فكان رأي ابن مردنيش أن يعاهد النصارى ويهادنهم أفضل له من أن يواجههم، ويدخل معهم في صراع هو في غنى عنه، خاصةً وأنه يميل للحياة والثقافة القشتالية وبالتالي فقد عقد معاهدتين الأولى كانت مع ألفونسو السابع ملك قشتالة مدتها أربع سنوات تعهد فيها ابن مردنيش بما يلي:

- أن يكون حاكماً على مرسية وبلنسية وما تبعهما باسم ملك قشتالة.

- أن يدفع جزية أو إتاوة سنوية مقدارها ٥٠ ألف مثقال ذهب.<sup>(٥٢)</sup>

وأما الاتفاقية الثانية، فقد وقعها ابن مردنيش مع ملك أراغون مدتها هي الأخرى أربع سنوات ونصت هذه الاتفاقية على:

- أن يدفع ابن مردنيش جزية أو إتاوة سنوية إلى ملك أراغون مقدارها ٥٠ ألف مثقال ذهب.<sup>(٥٣)</sup>

وإضافة إلى هذا فإن ابن مردنيش كان يجلب الكثير من المرتزقة النصارى من المملكتين (قشتالة وأراغون) وغيرهم، فيبني لهم الأحياء والحانات وينفق عليهم الأموال والهدايا ويشركهم في حروبه ويستعين بهم على أعدائه.<sup>(٥٤)</sup>

وقد عادت هذه العلاقات على ابن مردنيش بانعكاسات سلبية، تمثلت في إثقال كاهل رعيته بالضرائب ليستطيع تسديد الإتاوات، فقد فرض الضرائب على التجارة وعلى البقر والغنم؛ بل وصل به الأمر إلى فرض رسوم على الأعراس والمآتم، مما أدى إلى تكديس السلع في الدكاكين نظراً لغلواء سعرها، وانتشر الفقر بين رعاياه.<sup>(٥٥)</sup>

كما ترتب بموجب هذه المعاهدات التي عقدها ابن مردنيش مع النصارى عجز في الدفاع عن المعاقل الإسلامية ونجدها من النصارى، فقد كان عجزه عن نجدة مدن الثغر الأعلى وعلى رأسها ألمرية؛ التي شن عليها ألفونسو السابع حملة صليبية ضمت الجنود

- (٤) جذامة: هي قبيلة عربية يمنية تنسب إلى شيخها جذام بن علي بن الحارث بن مرة بن أحمد بن زيد بن يشجب بن عريب ابن زيد بن كهلان، أنظر: القلقشندي: الجمان في التعريف بقياتل عرب الزمان، ج ١، ص ١٥.
- (٥) هشام أبو رميلة: علاقات الموحدين بالممالك النصرانية والدول الإسلامية في الأندلس، ط ١، دار الفرقان، عمان، الأردن، ١٩٨٤، ص ١٠٧-١٠٨.
- (٦) كمال السيد أبو مصطفى: محاضرات في تاريخ المغرب الإسلامي وحضارته، مركز الإسكندرية للكتاب، مصر، ٢٠٠٧، ص ٢٨٥.
- (٧) قرطاجنة: هذا الاسم لثلاثة مواضع أحدها في الأندلس عند جبل طارق، والثانية قرطاجنة الخلفاء في الأندلس، والثالثة في إفريقية، والمقصودة هنا الثانية قرطاجنة الخلفاء، وهي من كورة تدمير، وهي مدينة قديمة أزلية ومنها إلى مرسية في البر أربعون ميلاً، ولها إقليم يسمى الفندون، كثيرة الخصب الرخاء المتتابع، أنظر: الحميري، المصدر السابق، ص ٤٦٢.
- (٨) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، العصر الثالث، عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، قسم ١، ط ٣، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ١٩٩٢، ص ٣٦٦-٣٦٧، وأنظر أيضاً: عبد الله علي علام: الدولة الموحدية في المغرب في عهد عبد المؤمن بن علي، دار المعارف، مصر، ١٩٦٨، ص ١٧١.
- (٩) شذونة: مدينة في الأندلس تطل على البحر المتوسط، مشهورة بالرخاء وكذلك بصيد السمك، أنظر: الحميري: المصدر السابق، ص ٣٣٩.
- (١٠) تدمير: من مدن شرق الأندلس سميت نسبة إلى ملكها القوطي تدمير، أنظر: المصدر نفسه، ص ١١٥.
- (١١) هشام أبو رميلة: المرجع السابق، ص ١٠٨.
- (١٢) الثغر الأعلى: هي المنطقة الحدودية الشرقية للأندلس المسلمة مع ممالك إسبانيا المسيحية، أنظر: الحميري، المصدر السابق، ص ١٤٩.
- (١٣) لسان الدين بن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، ج ٢، ص ٣٨.
- (١٤) محمد عبد الله عنان: المرجع السابق، ج ٣، ق ١، ص ٣٦٦.
- (١٥) إفراغة: تقع على نهر سنكا جنوب غربي لإردة، وقد انتصر فيها يحيى بن غانية على ألفونسو المحارب سنة ٥٢٨هـ، أنظر: عبد الله علي علام: الدولة الموحدية، ص ١٧٧.
- (١٦) محمد عبد الله عنان: المرجع السابق، ج ٣، ق ١، ص ١٢٢.
- (١٧) لسان الدين بن الخطيب: أعمال الأعلام فيمن بوع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، تحقيق: إلفي، بروفنسال، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، مصر، ٢٠٠٦، ص ٢٦٠.
- (١٨) القاضي ابن عياض: هو عبد الرحمن بن عياض، وتذكر المصادر أنه كان صالحاً مجاب الدعوة رفيق القلب سريع الدمعة، إلا أنه إذا جد الجد وركب وأخذ سلاحه فلا يقوم له أحد حتى أن النصارى كانوا يعدونه ١٠٠ فارس، أنظر: عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تر: صلاح الدين الهواري، ط ١، المكتبة العصرية، بيروت ٢٠٠٦، ص ١٥٤، وأنظر: عبد الله علي علام: المرجع السابق، ص ١٦٨، وأنظر أيضاً: ابن الخطيب: الإحاطة، ج ٢، ص ٢٢٨.
- (١٩) هشام أبو رميلة: المرجع السابق، ص ١٠٧.
- (٢٠) لسان الدين بن الخطيب: الإحاطة، ج ٢، ص ٨٥.
- (٢١) المصدر نفسه، ص ٨٦.
- (٢٢) البشكنس: ويطلق عليهم أيضاً اسم الباسك، وموطنهم من شمال شرق الأندلس، أنظر: أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق: إحسان عباس، ج ٥، ط ١، الدار العربية للنشر، بيروت، لبنان، ١٩٨١، ص ٥٣٢.
- (٢٣) القطلان: وهم من مملكة قطلونية، أنظر: عبد الله علي علام: المرجع السابق، ص ١٨٨.

الوقت كان الموحدون يهدفون إلى إخضاع ابن مردنيش والسيطرة على كافة أرجاء البلاد الأندلسية، فأهداف الطرفين هذه أدت بهما إلى الدخول في صراع طويل الأمد.

## خاتمة

ومما سبق ذكره يمكن القول: أن ابن مردنيش استطاع الانفراد بحكم شرقي الأندلس، وتأسيس إمارة بالمنطقة، وكانت له علاقات خارجية مختلفة سواء كانت ودية أو عدائية، إلا أنها أثبتت اعتراف الأطراف الخارجية بإمارته وحكمه للمنطقة، ومحاولة توسيع نفوذه في الأندلس، مما جعله يتمتع عن الدخول في طاعة الموحدين خاصةً بعد أن اعترفت بإمارته الممالك النصرانية، وحتى الجمهوريات الإيطالية، وكذلك تحالفه مع ابن همشك زاده تعنتاً في رفض الدخول في طاعة الموحدين ومبايعتهم وتقديم الولاء لهم، ومع الوقت أعلن ابن مردنيش بشكل صريح عن مناوئته للموحدين.

## الهوامش:

- (١) القلقشندي أبو العباس أحمد بن علي: الجمان في التعريف بقياتل عرب الزمان، تحقيق: إبراهيم الأبياري، ج ١، ط ٢، دار الكتاب اللبناني بيروت، لبنان، ١٩٨٢، ١٦، وأنظر أيضاً: شمس الدين الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ٢٠، ط ١، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان ١٩٩٣، ص ٤١، وأنظر كذلك: شمس الدين بن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، ج ٢، ط ١، دار صادر، بيروت، لبنان (د.ت)، ص ١٣١-١٣٥.
- (٢) لسان الدين بن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، ج ٢، تحقيق: محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٧٣، ص ٨٥.
- (٣) طرطوشة Tortosa: مدينة شمال شرق الأندلس بينها وبين بنسيسة مسيرة أربعة أيام، لها صور حصين وقصبتها من أمنع القصباء في الأندلس، تطل على البحر، سقطت في يد الإفرنج سنة ٥٤٣هـ، أنظر: كمال السيد أبو مصطفى: تاريخ مدينة بنسيسة الأندلسية في العصر الإسلامي (٩٥-٤٩٥هـ/ ٢٠٧١-١١٠٢م) - دراسة في التاريخ السياسي والحضاري، مركز الإسكندرية للكتاب، الإسكندرية، مصر، (د.ت)، ص ٤٧، وأنظر أيضاً: الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٧٥، ص ٢٢٣.

بخدمة ابن هود فلما سقطت سرقسطة في يد النصارى التحق بخدمة النصارى لفترة قصيرة، ثم فضل خدمة المرابطين فكان له ذلك حيث أحقه يحيى بن غانية بمدينة قرطبة وقد كان ابن همشك قاسيا متطرفا جبارا وقد بدت قسوته بشكل جلي على المسلمين في موقعة تل السبيكة بقرنطبة، أنظر: ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص ٢٦٣. وأنظر: عبد الله علي علام: المرجع السابق، ص ١٧٢، وأنظر أيضاً: حسين مؤنس: موسوعة تاريخ الأندلس، ج ٢، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة ١٩٩٦، ص ١١٧.

(٤٥) تزوج ابن مردنيش ابنة إبراهيم بن همشك وتسمى صبيحة، ثم طلقها بعد أن ساءت علاقته مع والدها، أنظر: ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ج ٦، ط ٢، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٩٥، ص ٢٣٩، وأنظر أيضاً: هشام أبو رميلة: المرجع السابق، ص ١٢٨.

(٤٦) لسان الدين بن الخطيب: الإحاطة، ج ١، ص ١٦٠.

(٤٧) هشام أبو رميلة: المرجع السابق، ص ١٠٩.

(٤٨) محمد عبد الله عنان: المرجع السابق، ج ٣، ص ٣٦٧.

(٤٩) أرأغون (Aragon): مملكة مسيحية نصرانية في الأراضي الأندلسية في الشمال الشرقي، عاصمتها برشلونة، تقع بين جرندة وطركونة التي سقطت على يد النصارى في عهد الأمير الحكم بن هشام الرضي الأموي سنة ١٣٥هـ، أنظر: الحميري: المصدر السابق، ص ٨٧.

(٥٠) تطيلة: مدينة تقع شرقي سرقسطة يجري بها نهر كالتش وهي مدينة آمنة حيث أن أبوابها لا تغلق أبداً وتتبعها مدينة طرسونة، أنظر: المصدر نفسه، ص ١٣٣.

(٥١) هشام أبو رميلة: المرجع السابق، ص ١٠٩.

(52) Remiro Gaspar: *Histoire de Murcia Musulmana*, university of Michigan, U.S.A 1905 - 53, P. 191-195.

(٥٣) هشام أبو رميلة: المرجع السابق، ص ١١١.

(٥٤) لسان الدين بن الخطيب: الإحاطة، ج ٢، ص ٨٧.

(٥٥) المصدر نفسه، ص ٨٨.

(٥٦) يوسف أشباخ: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، تر: عبد الله عنان، ج ١، ط ٢، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٩٩٦، ص ٢٣٤.

(٥٧) تذكر بعض المصادر أنها كانت إمارة مستقلة يحكمها القراصنة، وسبب غزو النصارى لها اتخاذ القراصنة من مرساها وكراً لسفهم يخرجون منها للإغارة على شواطئ إسبانيا المسيحية وشواطئ فرنسا وإيطاليا الجنوبية، أنظر: السيد عبد العزيز سالم: تاريخ مدينة ألبيرة الإسلامية - قاعدة أسطول الأندلس - مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، مصر، ١٩٨٤، ص ٩٤.

(٥٨) يوسف أشباخ: المرجع السابق، ج ١، ص ٢٣٥.

(٥٩) أحمد بن محمد المقرئ: نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: محمد معي الدين عبد الحميد، ج ٦، ط ١، مطبعة السعادة، مصر، ١٩٤٩، ص ٢٠٦.

(٦٠) برشلونة: مدينة تقع شمال شرق الأندلس بين جرندة وطركونة سقطت في يد النصارى في عهد الأمير الحكم بن هشام الرضي الأموي سنة ١٨٥هـ، ويقال أنها تقع على شاطئ المتوسط شرقي الأندلس يتم الدخول والخروج منها إلى الأندلس على باب الجبل المسى بهيكل الزهرة ويسمى ابن الخطيب أرغون وبرجلونة وتسمى بأرأغون، أنظر: الحميري: المصدر السابق، ص ٨٧، وأنظر أيضاً: ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين، تحقيق: عبد الهادي التازي، ط ٣، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ١٩٨٧، ص ١٥٣ - ١٥٤.

(61) Bernard Reilly: op-cit, P. 162.

(٦٢) محمد عبد الله عنان: المرجع السابق، ج ٣، ق ١، ص ٣٧٢.

(٢٤) القشتال: نسبة إلى مملكة قشتالة عاصمتها طليطلة والتي استردها الملك ألفونسو السادس أيام ملوك الطوائف، أنظر: المرجع نفسه، ص ١٨٩.

(٢٥) شنتميرة أو شنتبرية Santaver: تقع بجوار حدود سرقسطة الجنوبية، وكانت حاضرة مملكة بني رزين عهد ملوك الطوائف، مما جعل الإسبان يطلقون عليها كلمة Albarracin، أنظر: لسان الدين بن الخطيب: الإحاطة، ج ٢، ص ٨٧، وأنظر: أعمال الأعلام، ص ٢٦١.

(٢٦) محمد عبد الله عنان: المرجع السابق، ج ٣، ق ١، ص ٣٦٦.

(27) Rosseeuw ST - Hilaire: *Histoire d'Espagne depuis les premiers temps jusqu'à la mort de - Ferdinand VII*, T4, Paris, 1844, P. 418.

(٢٨) أريولة Orihiela: وهي مدينة قديمة أزلية تقع بالغرب من بلنسية وقرطاجنة ومعناها: "الذهبية"، أنظر: ابن صاحب الصلاة: المصدر السابق، ص ٤٢٣، وأنظر أيضاً: الحميري: المصدر السابق، ص ٣٣٧.

(٢٩) ابن طاهر: وهو أبو عبد الرحمن بن طاهر كان جده أميراً على مرسية في عهد ملوك الطوائف، كما كان عالماً أدبياً وكان له نفس اسم حفيده الذي كان هو الآخر عالماً فاضلاً، أنظر: عبد الله علي علام، المرجع السابق، ص ١٦٧.

(٣٠) هشام أبو رميلة: المرجع السابق، ص ٨٤، وأنظر: عبد الله علي علام: المرجع السابق، ص ١٦٧ - ١٦٨.

(31) Rosseeuw ST - Hilaire, op-cit, P. 45.

(٣٢) هشام أبو رميلة: المرجع السابق، ص ٨٩، وأنظر أيضاً: شكيب أرسلان: الحلل الستدسية في الأخبار والآثار الأندلسية، مج ٣، مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٠٩، ص ٤٢٧.

(٣٣) ابن الأيثار: الحلة السرياء، تحقيق: حسين مؤنس، ج ٢، ط ٢، دار المعارف، لبنان، ١٩٨٥، ص ٢٣٢.

(٣٤) بلش: تحريف للكلمة اللاتينية vallis بمعنى وادي، وتسمى حالياً vellez وتقع في غرب مالقة بينهما نحو ٣٤ كلم وهي مدينة حسنة بها مسجد عجيب وفيها الأعتاب والفواكه والتين مثل مالقة، أنظر: لسان الدين بن الخطيب: خطرة الطيف - رحلات في المغرب والأندلس - تحقيق وتقديم: أحمد مختار العبادي، ط ١، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ٢٠٠٣، ص ٧٦.

(٣٥) يذكر المراكشي في المعجب أنه لم يكن صهره فقط، بل كان أيضاً خادمه يحمل له السلاح ويتصرف بين يديه في حوائجه، أنظر: عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص ١٥٤.

(36) José Andrés Gallego: *Historia general de Espagnay, America*, Ediciones Riopl 1992, P. 472.

(37) Ibid, P. 473.

(٣٨) عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص ١٥٤ - ١٥٥.

(٣٩) محمد عبد الله عنان: المرجع السابق، ج ٣، ق ١، ص ٣٦٤.

(40) Pierre Guichard: *Espagne et la Sicile musulmanes aux 11 et 12 siècles*, presses universitaires, Lyon 1990, p 27.

(٤١) هشام أبو رميلة: المرجع السابق، ص ١٠٩.

(42) Bernard F.Reilly: *Castilla Under King Alfonso*, University New York, 1975, P. 154.

(٤٣) لسان الدين بن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، ج ٢، ص ٨٧، أعمال الأعلام، ص ٢٦١.

(٤٤) ابن همشك: يسميه ابن أبي زرع "إبراهيم" ويسميه عبد الواحد المراكشي "عبد الله" وعلى رأي ابن أبي زرع سار معظم المؤرخين، وأبوه هو محمد بن علي بن همشك بفتح الهاء وضم الميم وسكون الشين، وهو ينتهي إلى أصل نصراني لم يختلف فيه المؤرخون وكلمة همشك إسبانية حرقها العرب من كلمة هيموشيكو (Hemochico) ومعناها حسب ما يذكر ابن الخطيب - مقطوع الأذن - إذ كان جده مقطوع الأذن، فعرف بهذا اللقب عند المنادة عليه في الحروب، وقد نشأ ابن همشك في سرقسطة، ولما كبر قليلاً اتصل